

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES

(معهد الدوحة)



www.dohainstitute.org

تقييم حالة

روسيا والعرب.. أوان البراغمة ونهاية الأيديولوجيا

د. عاطف معتمد عبد الحميد

الدوحة، تشرين الأول/ أكتوبر - ٢٠١١

سلسلة (تقييم حالة)

المحتوى

١	مقدمة
٢	١ - ميراث التاريخ
٥	٢ - موقف روسيا من الثورات العربيّة
١١	٣ - الحسابات الجيوسياسيّة
١٦	خاتمة واستنتاجات

مقدمة

منذ اندلاع الحراك الثوري العربي مطلع العام ٢٠١١، اختارت روسيا موقفاً ظلّ الأكثر تحفظاً بين المواقف الدوليّة كافة؛ حيث لم تعلق روسيا البتّة على الثورة التونسيّة، وتابعت بقلقٍ بالغ سقوط صديقها المخضرم حسني مبارك في مصر؛ ثمّ خالفت روسيا الموقف الذي نادى به معظم عواصم العالم بضرورة إيقاف الحرب التي يشنها القذافي على شعبه متوعّداً إيّاه بالإبادة حتى آخر رجل وامرأة، إذ اعتبر فلاديمير بوتين حملة الناتو على القذافي "حرباً صليبيّة". ولم تهتمّ روسيا كثيراً للأزمة في اليمن؛ غير أنّها وقفت حائطاً لصدّ أيّ محاولة غربية فاعلة، ضدّ القمع الذي يمارسه نظام بشّار الأسد تجاه الثورة الشّعبيّة في سوريا.

ومع نجاح الثورات العربيّة ضدّ الأنظمة المستبدّة الصديقة لروسيا، لم تجد موسكو حرجاً في ابتلاع تصريحاتها القديمة، وتغيير موقفها تكتيكياً، جامعةً بين المبدأ السياسيّ ونقيضه وفق النهج البراغماتيّ الذي تنتهجه روسيا منذ عام ٢٠٠٠. وقد أسهم هذا النهج في انتقال روسيا بطريقة "مدهشة"، من معسكر الزافضين للتخيير في ليبيا في آذار/مارس ٢٠١١، إلى معسكر المطالبين برحيل القذافي بعد شهرين فقط (في أيار/مايو)؛ بل وسارعت إلى فتح قنوات اتّصال مع المجلس الوطنيّ الانتقاليّ، معتبرة إيّاه شريكاً في الحوار، بعدما أعلن المجلس التزامه بمصالح روسيا وعقودها في ليبيا ما بعد القذافي.

وقد عبّرت وسائل الإعلام الروسيّة عن هذه الازدواجيّة ببلاغة، حين كان الخبر الرئيس الذي تداولته في مطلع شهر حزيران/يونيو ٢٠١١، يقول: "روسيا مستعدّة للاعتراف بالثورات دون التخلّي عن القذافي!" وعادت روسيا بعد خمسة أشهر من موقفها المتصلّب في الدفاع عن ليبيا القذافي، لتعلن على لسان رئيسها دميتري مدفيديف في ١٢ آب/أغسطس ٢٠١١ -وقد اقترب الثوار من معركة الحسم في طرابلس- عن تطبيقها قرار حظر الطيران فوق ليبيا بكامل نصوصه. وبعدها دخل الثوار طرابلس، سارعت روسيا في مطلع أيلول/سبتمبر ٢٠١١ إلى لملمة رهانها الخاسر بدعوة قادة المجلس الانتقاليّ الليبيّ لزيارة موسكو لأجل التفاوض في شأن مصالح المستقبل.

أمّا في المسألة السوريّة، فقد انتقلت روسيا في آذار/مارس ونيسان/أبريل ٢٠١١، من موقف رافضٍ لأيّ إدانة دوليّة لسوريا، إلى موقف تبنت فيه وصف دمشق المعارضين بأنهم جماعات مسلّحة متطرّفة؛ لكنّها عادت فاستقبلت المعارضة السوريّة بعد شهرين من الموقف السّابق، وذهبت إلى أكثر من ذلك لتتبنّى موقف تلك المعارضة، المنادي بضرورة تصحيح موسكو لمسارها، بالمرهنة على الصّداقة والشراكة مع الشعب السوريّ وليس مع الأنظمة الزائلة. وحاولت روسيا ارتداء زيّ السياسة الحكيمة، حين حدّرت دمشق في أيلول/سبتمبر ٢٠١١، من أنّ "صبر المجتمع الدوليّ قد نفذ".

واستمرت روسيا تقذف بالأرجوحة الدبلوماسية في الحلبة الدولية، فاستخدمت في مطلع تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١١ حقّ الفيتو (مشتركة مع الصين)، مُحِيطَةً مشروع قرار مجلس الأمن لإدانة النظام السوري. ولكن موسكو أعلنت في اليوم التالي أنّ على القيادة السورية أن تنتحى إذا لم تتمكن من حلّ الأزمة في البلاد!

وفي ظلّ هذه السياسات المراوغة، يتساءل كثيرون عن سبب اصطافاف روسيا في البداية إلى جوار الأنظمة العربية، غير آبهة بطموحات وتطلّعات شعوب المنطقة؟ ثمّ لماذا تغيّر روسيا مواقفها فجأةً ونقف في منتصف الطريق، وتميل إلى الكفة التي يبدو أنّها ستحقّق رجحاناً في المستقبل؟ هل ينطلق الموقف الروسي من حسابات ظرفية لأزمة عابرة، أم يجسّد نهجاً طويل الأمد في تعاطي موسكو مع قضايا الشعوب العربية؟ كيف توازن روسيا بين حسابات الربح والخسارة؟ وهل لأولويات ترتيب البيت الروسي من الدّاخل، علاقة بهذا الموقف المتحفّظ من الحراك الثوريّ العربيّ؟

تفترض هذه الورقة أنّ الموقف الروسي ("السّلبّي" ابتداءً ثمّ "البراغماتيّ" حالياً) من الثورات العربية، محكومٌ بعدة أبعاد مرتبطة بميراث تاريخي، وشبكة حسابات جيوسياسية، وأزمة أيديولوجية، واحترازات وقائية؛ تملئها خبايا البيت الروسيّ من الدّاخل.

١- ميراث التاريخ

رغم ظهور الروس على مسرح السياسة الدولية منذ القرن العاشر الميلادي، إلّا أنّ علاقات السياسة الخارجية مع العرب بمعناها الرّسمي، لم تتبلور إلّا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى؛ فخلال عشرة قرون سبقت ظهور الاتّحاد السوفييتي، كانت العلاقات بين العرب وروسيا تتمّ عبر وساطة الإسلام الذي اعتنقته بعض شعوب الفولغا والأورال وسيبيريا والتركستان والقوقاز^(١).

لم تكن هناك علاقات رسمية بين روسيا والعالم العربيّ قبل الفترة السوفييتية، في مقابل العلاقات المتطورة للعرب مع كلّ من إيران وتركيا (الإمبراطورية العثمانية). وكان العالم العربيّ الخاضع للدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر الميلاديّ، محطّ اهتمام سياسيّ محدود لروسيا. واقتصرت العلاقات المتبادلة بين الطرفين على المجالات الثقافية، التي جاءت من خلال رحلات حجّاج روسيا المسيحيين والمسلمين، الذين كانوا يقطعون المشرق العربيّ برّاً، وصولاً إلى الأماكن المقدّسة في فلسطين وشبه الجزيرة العربية، فضلاً عن أنّ الكنيسة الشرقية الروسية، كانت تقدّم نفسها أمام السّلطات العثمانية حامية للمسيحيين الشرقيين في فلسطين وسوريا. ولم تكن هناك سوى بعض مشروعات تجارية محدودة بين روسيا والعرب؛

^١ راجع عن جذور علاقة روسيا بالعرب والإسلام رحلة ابن فضلان الذي وصل إلى أرض البلغار عام ٩٢١ م: أحمد بن فضلان، الرحلة، تحقيق شاكّر لعبيبي (أبو ظبي: دار السويد، ٢٠٠٣). وانظر في التاريخ الحديث للصدام بين روسيا وحركات المقاومة الإسلامية:

Gammer. M, *Muslim resistance to the Tsar: Shamil and the Conquest of Chechnia and Daghestan*, (London: Frank Cass & Co. ١٩٩٤).

وكانت مدن اللادقية وحلب وبيروت، قبله أنظار القناصل الروس بدءاً من عام ١٨٣٠. وشهدت هذه المدن وغيرها افتتاح عشرات المدارس الدينية الأرثوذكسية برعاية من روسيا^(٢).

وبعد اندلاع الثورة البلشفية، أظهر الشيوعيون اهتماماً نسبياً بالعرب، انطلاقاً من التصنيف الثوري الذي وضعه لينين عام ١٩٢٠، وصنّف فيه العالم العربي ضمن الفئة الثالثة التي تضم الشعوب المقهورة الخاضعة للاستعمار الأجنبي، والتي تبحث عن نصير يمدّ لها يد العون للتحرّر. لقد كان حجم الاهتمام بالعرب قليلاً نسبياً، حيث انصبّ الاهتمام الشيوعي على شعوب الفئة الأولى، والتي تمثلها الطبقات العاملة في الدول الصناعية المتقدمة في أوروبا الغربية، ثم شعوب الفئة الثانية، والتي تضم الحركات الديمقراطية البرجوازية في أوروبا الشرقية. لكن هذا الاهتمام الروسي - على ضعفه - بالعالم العربي سرعان ما خفت، بسبب انشغال موسكو بالصراع على أوروبا فيما بين الحربين، وعدم ظهور طبقة سياسية عربية يمكن لروسيا التّعوّل عليها في قيادة حركات التحرّر من الاستعمار^(٣).

نجحت حركة القومية العربية بعد الحرب العالمية الثانية في جذب اهتمام روسيا السوفييتية - مرة أخرى - إلى العالم العربي. فقد وجدت موسكو في هذه الحركة شريكاً مناسباً يسهل لها خوض المعركة بالوكالة أمام القوى الإمبريالية الرأسمالية. وعلى الرغم من أنّ بعض الشيوعيين الروس قد عبّروا مبكراً عن تشكّكهم في حركة الوحدة العربية، معتبرين أنّها لم تكن سوى "مناورة تكتيكية من القوى الرجعية"، إلا أنّهم سلّموا مع ذلك بأنّ حركة الوحدة العربية أقلّ خطراً على روسيا مقارنة بالوحدة الطورانية أو الإسلامية^(٤). وعقب العدوان الثلاثي في سنة ١٩٥٦، بدأت العلاقات الروسية (السوفييتية) مع العالم العربي تتقدّم خطوات واسعة. ويمكن القول: إنّ النافذة التي التقى من خلالها العرب والروس في العصر الحديث، هي في أساسها نافذة عسكرية؛ فصفحة الأسلحة التشيكية (السوفييتية في حقيقة الأمر) لمصر عبد الناصر في عام ١٩٥٥، كانت نقطة انطلاق العلاقات بين الطرفين^(٥).

وعلى الرغم ممّا يُقال - من أنّ روسيا تنتهج اليوم نهجاً براغماتياً، مقارنة بالنهج الطوباوي الذي اتّبعته زمن الشيوعية؛ إلا أنّ للبراغماتية الروسية في العالم العربي جذوراً أصيلة. ففي وصفه للعلاقات مع زعيم حركة القومية العربية، يقول خروتشوف: "إنّ عبد الناصر ليس شيوعياً، فهو يزجّ بالشيوعيين في المعتقلات، ولكنني أفهمه وهو يفهمني، وتأييدنا له يأتي من كونه زعيماً وطنياً يعبر عن آمال أمته"^(٦).

اقتضت ضرورات الحرب الباردة بين المعسكرين الشيوعي والرأسمالي، أن يرفع الاتحاد السوفييتي من مكانة العالم العربي في أولويات اهتمامه، رغم افتقار المنطقة للتطور الرأسمالي والبرجوازي، ورغم افتقارها أيضاً للمسوغات الاجتماعية والاقتصادية المؤهلة لانتشار النموذج الشيوعي. وكان لهذه العوامل

^٢ Kreutz, A, *Russia in the Middle East: Friend or Foe?* (London: Praeger Security International. ٢٠٠٧), p. ٢.

^٣ Ibid, p. ٦.

^٤ والتر لاکور، الاتحاد السوفييتي والشرق الأوسط، (بيروت: المكتب التجاري للطباعة ١٩٥٩)، ص ٥٧، ٤٥، ١١٨.

^٥ المصدر نفسه، ٢٦٥.

^٦ أليكسي فاسيليف، روسيا في الشرق الأدنى والأوسط، ترجمة المركز العربي للصحافة ومراجعة حمدي عبد الحافظ، (موسكو، ٢٠٠١)، ص ١٨٩، ١٩٤، ٣٧٢.

دورها في تعطل النموذج السوفييتي في العالم العربي بهزيمة حرب عام ١٩٦٧، التي مثلت ضربة لهيبة الوجود العسكري والاقتصادي لروسيا في العالم العربي.

وعلى الرغم من المدّ السوفييتي في مصر في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، إلا أنّ العلاقات العربية الروسية تعرّضت لخيبة أمل كبرى، حين قفز السادات فجأة وراديكاليًا نحو القارب الأميركي، وطرد الخبراء السوفييت من الجيش المصري. وانحسرت العلاقات الروسية العربية، لتصبح علاقات مع "المشرق العربي"، وبصفة خاصة مع العراق وسوريا. وتزعمت سوريا جبهة "الصمود والتّصدي" بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد.

وخلاف الشائع عن أنّ ثقل روسيا السوفييتية في العالم العربي قد انهار مع حرب "عاصفة الصحراء" عام ١٩٩١، فإنّ الحقيقة أنّ هذا الثقل تبدّد فعليًا قبل ذلك بعقد من الزمن، حين وقف الاتحاد السوفييتي يتابع - من بُعدٍ - الغزو الإسرائيلي للبنان وحصار بيروت في عام ١٩٨٢. وكان صعود غورباتشوف إلى السّلطة في سنة ١٩٨٥ وانكفاؤه على الإصلاح الداخلي؛ إيذانًا بانسحاب سوفييتي كلي من الشرق الأوسط. وتوافق عقد مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١ مع تسليم روسي فعليّ بهيمنة أميركية على سياسات العالم العربي والقضية الفلسطينية على وجه الخصوص. وقد خرج الوريث الشرعي للاتحاد السوفييتي (الاتحاد الروسي) إلى حلبة السياسة الدولية مكبلًا بمشكلات داخلية، ومجرّدًا من أيّ إغراءات أيديولوجية. وبالتالي، فقدت روسيا البعد "الرسالي"، وتحوّلت إلى واحدة من القوى الإقليمية أو الدولية الساعية إلى عقد علاقات عسكرية واقتصادية مع العالم العربي.

ومع تولّي السياسي المخضرم يفغيني بريماكوف منصب وزارة الخارجية (١٩٩٦-١٩٩٨)، ثمّ منصب رئاسة الوزراء (١٩٩٨-١٩٩٩)، عاد الاهتمام الروسي بالعالم العربي إلى الواجهة. ولم يكن ذلك الاهتمام تقديرًا لمكانة العالم العربي الجيوسياسية فحسب، بل أيضًا اتّساقًا مع رؤية بريماكوف (المستمدة من المجد السوفييتي)، والتي لا ترضى بغير مكانة الريادة الدولية لروسيا في ساحة السياسة العالمية^(٧).

أدت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ والغزو الأنجلو-أميركي للعراق في ٢٠٠٣، إلى تضيق اهتمامات روسيا بالعالم العربي، فجمّدت أشكال التّعاون معه ولم تعد تتجاوز حدود صفقات الأسلحة وامتيازات التّقيب عن النفط والغاز في الصحاري العربية. وعلى خلاف الخسائر الجيوسياسية التي تكبّدها روسيا من غزو العراق وأفغانستان ومن أثر التّوتر في منطقة الخليج العربي، فإنّ تلك الأحداث؛ هي ذاتها التي حقّقت مكاسب مالية هائلة لروسيا، مع ارتفاع أسعار النفط والغاز بسبب تلك الحروب والصّراعات. وعلى هذا التّحوّل، شهد العقد الأخير ارتفاع الأجور في روسيا بنسبة ٧٥%،

^٧ انظر المزيد من التفاصيل:

Primakov, Y, *Russia and the Arabs*. (Ney York: Basic Books, ٢٠٠٩)

وانخفاض معدّلات الفقر إلى النّصف، مع وجود فائض مطّرد في الميزانيّة الفيدراليّة، فضلاً عن ارتفاع شعبيّة وثقة المواطنين في قيادة الكرملين^(٨).

ومما زاد من تعتّر العلاقات العربيّة الروسية، تشابك وتشعب القضايا العربيّة التي لا تمثّل صوتاً واحداً؛ بينما هناك جانبٌ رسميٌّ واحد لروسيا يعبر عنه الكرملين. فليس هناك موقف عربيّ واحد تجاه أيّ قضية لبلد عربيّ بعينه، بل إنّ لكلّ بلد عربيّ -أحياناً- أكثر من موقف معلّن، في ظلّ تعدّد القوى المحليّة والإقليميّة.

٢- موقف روسيا من الثورات العربيّة

اتّسمت المواقف الغربيّة من الثورات العربيّة بالبراغماتية، إن لم نقل الانتهازية؛ فنهج ما بعد الكولونياليّة الذي تتبعه العواصم الغربيّة مع العالم العربيّ من مصلحته بقاء أنظمة مستبدّة تتفدّ الاتفاقات والمعاهدات دون الرجوع إلى الشعوب أو الأطياف الحزبيّة. فعالم عربيّ جديد قائم على الديمقراطيّة، هو بكلّ المقاييس خسارة للمستعمرين القدامى. وحين تتقلب العواصم الغربيّة على بعض الزعماء العرب، وتساند معارضيه، فهي تسارع إلى ضمان مكان جديد لها في المستقبل، إيماناً منها بأنّ لكلّ مستبدّ عمراً افتراضياً ينتهي بافتضاح جرائمه.

ولا تقف روسيا بعيدة عن هذا النهج، والفارق الوحيد أنّها دولة لا تنتسّق بالديمقراطية، ولا تمارسها في حقيقة الأمر، ولا تطالب أيّ طرف على الساحة الدوليّة بها. ومن ثمّ، فإنّ نقطة البداية في فهم الموقف الروسيّ غير المرحب بربيع الثورات العربيّة هو أنه ليس هناك اختلاف بين غاياتها الإستراتيجية وبقية الأهداف طويلة الأمد للقوى الغربيّة، والاختلاف هو في الوسائل والآليات التكتيكية. وبديهي أنّ موسكو وغيرها من عواصم القوى الكبرى تتمنّى عالمًا عربيًّا راكداً واستبدادياً يحقّق مصالحها على الأمد الطويل.

ويمكن القول إنّ الموقف الروسيّ من الحراك الثوريّ العربيّ محكومٌ ببعدين رئيسيين هما: تشابكات الدّاخل، والخوف من عدوى الثورة.

أ. تشابكات الدّاخل الروسيّ

يتّسم النظام الحاكم في روسيا منذ عام ٢٠٠٠ بأنّه نظام محافظ للغاية، لا يؤمن بأيّ خطط ثوريّة، ويعتق نهجاً "تدرجياً" يتحرّك بخطوات بطيئة لكنها ثابتة وراسخة. وبدلاً من الديمقراطيّة على النمط الغربيّ، يؤمن النظام الحاكم في روسيا بما يسمّى "الديمقراطية الدستورية"، وهي أقرب إلى مفهوم "دولة المؤسّسات" التي تقوم على احترام "شرعيّة" المؤسّسات الحاكمة مع إعطاء صلاحيات فائقة لرئيس البلاد،

^٨ Kreutz. A, Op. Cit., p. ٥.

تقترب به من الحكم الشمولي. في المقابل، يقدّم هذا النظام المستحوذ على السلطة وعودًا بأن يحقق خطوات ملموسة في تحسين البنية الاجتماعية والاقتصادية وإعادة روسيا إلى زعامة النظام العالمي من جديد^(٩).

ومن خلال مراجعة الدّاخل الرّوسيّ على مدار السّنوات العشر الماضية، يمكن القول إنّّه لا مفاجأة في موقف موسكو البارد من سعي الشّعوب العربيّة نحو الديمقراطية وإيقاف الفساد واستبداد الحزب الحاكم وعبادة الفرد، وذلك للاعتبارات التّالية:

- روسيا هي آخر من يمكنه دعم الديمقراطيّة في العالم العربيّ أو التّبشير بها، فروسيا متّهمة في الدّاخل والخارج بتزييف الانتخابات البرلمانيّة، واحتكار السّلطة في يد حزب الرئيس (حزب روسيا الموحّدة)، وترتيب انتقال السّلطة بطريقة الصّفقة وتوزيع المصالح، والتّضييق على وسائل الإعلام، واعتقال المعارضين وتصفية بعضهم، وانتشار الفساد بمعدّلات وضعت روسيا بين أكثر دول العالم فسادًا، فضلًا عن تزايد الفجوة بين المتخمين والمعدمين.
- أكثر من ثلث الشّعوب الرّوسيّة يعتبر الحزب الحاكم "حزب المحتالين واللّصوص"، لكنه مضطرّ للثّقة في الحكومة الحاليّة ليس بدافع الرّضا والقناعة بل أملًا في أن يستمرّ الاستقرار^(١٠). وهو وضع يشبه حالة كثير من الدّول العربيّة (وفي مقدّمها مصر) التي كانت الأنظمة الحاكمة فيها قد عقدت نوعًا من الصّفقة غير المعلنة مع الأغلبية الصّامتة، تحتكر بمقتضاها السّلطة السياسيّة والاقتصاديّة في مقابل وعود بتحسّن الظروف المعيشيّة باطراد^(١١).

عانت روسيا من نوع من المتلازمة المرضية بين الديمقراطيّة والأوضاع المعيشيّة والمستوى الاقتصادي. ففي تسعينيات القرن العشرين عرفت روسيا توجّهًا ليبراليًا ومناخًا ديمقراطيًا رافقته حالات من النهب الاقتصاديّ للدولة وتدنيّ مستوى المعيشة وأزمات اقتصاديّة صادمة. في المقابل، تلازم الحكم الشمولي الذي عرفته البلاد في العقد الأوّل من القرن الحادي والعشرين (٢٠٠٠-٢٠١٠) مع حالة من الاستقرار الاقتصاديّ وتحسّن الأحوال المعيشية وارتفاع الرّواتب والمعاشات. وصارت بعض التّعابير الاختزاليّة معبّرة عن هذه الثنائيّة، بحيث بدا أنّ على الشّعوب الرّوسيّة المفاضلة بين "ديمقراطية وفقير" أو "حكم شموليّ ورخاء" حتّى صار الخيار حتميًا بين الخبز والحريّة. وقد دعا ذلك بعض المعارضين الرّوس إلى التّصريح بأنّ "النّمودج الذي يحكم روسيا اليوم [الثنائي بوتين وميدفيدف] لا يختلف عن العهد الشيوعي

^٩ انظر عاطف معتمد، "روسيا بوتين.. مراجعات عند المنعطف". الجزيرة. نت. ٣ آذار/مارس ٢٠٠٤.

<http://www.aljazeera.net/NR/exeres/E7229B7E-16DE-48F9-80D1-12F2304B2F20.htm>

^{١٠} Dmitri Trenin et al, "Russia in Mid-2011", *Carnegie Moscow Center*. June 22, 2011

http://carnegieendowment.org/files/russia_in_2011.pdf

^{١١} "الموجات الثورية في محطاتها العربية"، ترجمة أسامة صالح، الترجمان، العدد الأوّل، (٢٠١١). للمزيد من التفاصيل، راجع: جرايم هيرد؛

الذي عرف حكم الحزب الواحد والاقتصاد الشموليّ وعسكرة الدولة وعبادة الفرد إفي إشارة إلى الفترة الستالينية^(١٢).

تؤمن موسكو بما يُعرف بـ "مبدأ الكفاية الروسي" الذي تعتبر فيه نفسها مكتفية عن غيرها، وغير مضطّرة لتطبيق التجارب الأوروبية ونقلها حرفياً. وتتمثّل أهمّ ملامح الكفاية الروسية في أنّ لدى هذه الدولة مساحةً كبيرة من الثقة بالنفس وشعوراً عميقاً بأنّ لها فضلاً كبيراً على شعوب المنظومة الغربية والدول الأوروبية، حين "أنقذت" روسيا العالم الأوروبيّ بأسره من النازية و "حرّرت" عواصم أوروبا الكبرى من الاحتلال الهتلري. هذه الذاكرة التي عايشها الجيل الحالي من قدامى الشيوعيين، والتي تتداولها الأجيال الروسية تباغاً، لا تعطي لنموذج الديمقراطية الغربيّ كثير اهتمام.

ويجد النظام الحاكم في روسيا لنفسه أعداءً كثيرة لتبنيّه النهج الشموليّ غير الديمقراطيّ، ومن أهمّها أنّ التباين العرقيّ والدينيّ، والتباين الجغرافيّ الكبير للأقاليم عن المركز يرشّح كثيرا من المناطق لخطر الانفصال والتفكّك. وتجد كثير من الجماعات القوميّة في روسيا (السلافية خصوصاً) نفسها تقبل خيار القبضة الحديدية والمركزية والشموليةّ حفاظاً على أصقاع الدولة المترامية الأطراف، وانقواءً لأن يأتي خيار الديمقراطية بالتفكّك وانفراط البناء الفيدرالي^(١٣). فمن عيوب النظام الفيدراليّ الروسي أنّ بنيته قائمة على أساس المجموعة العرقية السائدة فيه (نفس المعضلة السوفييتية التي انتهت بتفكّك الاتحاد السوفييتي)، وبالتالي، فالفرصة مهيأة لأن تطالب كلّ جمهورية أو منطقة إدارية باستقلالها على الأرض التي تضمّها. ولعلّ هذا ما يفسّر بقاء اسم الاتحاد "الفيدرالي" الروسي مسمّى نظرياً غير قابلٍ للتطبيق وغير مستعدّ لقبول الخيار الديمقراطيّ.

ب. الخوف من عدوى الثورة

في الوقت الذي اندهش فيه الثوريون العرب من الموقف المتحفّظ لروسيا تجاه الحراك الثوري العربيّ، غابت عن الكثيرين منهم فرصة الاطلاع على خصائص البيت الروسي من الدّاخل، وأهمّ هذه الخصائص أنّ الكرملين انتابه قدر من القلق من وصول الثورات العربية إلى دياره. فالعالم العربيّ والعالم الروسيّ -دعنا نقل- بينهما كثير من التشابه في أنظمة الحكم الشموليةّ، وفي ترتيب انتقال السلطة بين زمرة من الرّجال الأشداء من العسكريين ورجال المخابرات، واستقطاب حادّ للسلطة، وفي توزيع ظالم للخدمات بين المركز والأطراف.

^{١٢} راجع للتفصيل: عاطف معتمد، استعادة روسيا مكانة القطب الدولي.. أزمة المرحلة الانتقالية، (بيروت: الدار العربية للعلوم ومركز الجزيرة للدراسات، ٢٠٠٩).

^{١٣} راجع خريطة الفيدرالية الروسية في: يانيس تورلايس، أطلس روسيا والعالم، (موسكو: دار روسمان، ١٩٨٩)، ص ١٤.

وقد وجد المعارضون -للكرملين في الدّاخل الروسي- في تجربة الربيع العربيّ فرصة مواتية لاندلاع ثورات في الأراضي الروسيّة، ويذهب بعضهم إلى أنّ بلادهم تشترك مع العالم العربي في التّدهور الحادّ عند عدّة مستويات أهمّها تآكل طبقة المثقّفين، وتراجع مستوى الحياة الإنسانيّة عمومًا، والقمع السياسيّ، وتداعيات الحرب والصّراعات الدميّة في المناطق الانفصاليّة. وينتظر المنادون بالثورة في روسيا أن تنقذهم الثورة من استمرار تدهور "المخزون الجيني" للأمة، ونزيف العقول إلى أوروبا والولايات المتّحدة وإسرائيل، وانتشار المخدّرات والكحوليات. ويعتقدون أنّ ربيعًا روسيًا يحاكي الربيع العربيّ بوسعه إعادة فرص الحوار بين الشعب ونظامه الحاكم.

ومن اللافت أنّ ربيع العرب تزامن مع انعقاد مؤتمر روسيّ موسّع كان يناقش مرور عشرين سنة على انهيار الاتحاد السوفييتي، أكّد فيه بعض المشاركين أنّ روسيا يتهدّدها مصير الاتحاد السوفييتي نفسه الذي تألّف من جمهورياتٍ مختلفة الأعراق والأديان والطّموحات. فروسيا مركب معقّد يجمع على نحو قسريّ الجمهوريات والأقاليم ضمن "الاتحاد" الروسي^(١٤).

ويذهب بعض الباحثين، من أمثال يفغيني ياتانوفسكي، إلى أنّ حالة الحراك الثوري في العالم العربيّ ربّما تؤثر مباشرةً في جمهوريتي تترستان وبشكورتستان في قلب العمق الروسيّ، بحيث تثير حماسة الحركات الإسلاميّة والقوميّة في هاتين الجمهوريتين^(١٥)، أخذًا في الاعتبار أنّ النهج الذي تتبعه هاتان الجمهوريتان نهجٌ سلميّ وديمقراطيّ يشبه التّجربتين التونسيّة والمصريّة وبعيدٌ عن النهج الصّدامي المسلّح الذي اتبعته جمهوريّة الشيشان في القوقاز^(١٦).

لكن أصداء الثورات العربيّة قد لا تقتصر على القوميّات الإسلاميّة في العمق الرّوسّي والقوقاز، بل من شأن تأثيرها أن يولّد ردّة فعل عكسيّة شوفييتيّة من قبل أبناء العرق الرّوسّي، ليس سعيًا وراء الديمقراطية بل تلبية لمطالب قوميّة فاشية يقودها النازيون الجدد، خاصّة بعد تراجع حلم الوحدة السّلافية، يتمّ فيها اضطهاد المهاجرين والقوميّات غير الروسيّة تحت دعاوى رهاب الأجانب (غزيفوبيا Xenophobia) والخوف من تآكل روسيا ديموغرافيًا أمام أبناء الأعراق الأخرى^(١٧).

ومن حسن طالع روسيا أنّ ربيع الثورات العربيّة قد تأخّر قليلاً، فبعد ثورة الورود في جورجيا (٢٠٠٣) والثورة البرتقاليّة في أوكرانيا (٢٠٠٤) والثورة الشعبيّة السلميّة التي أفضلتها النظام البوليسيّ في أوزبكستان (٢٠٠٥) ثمّ تعاقب ثورتين في قرغيزيا (٢٠٠٥ و ٢٠١٠)، خبرت روسيا كيفية التعامل مع النهج الثوري

^{١٤} انظر مداخلة جيورجي بوفت في مؤتمر "عشرون عاما منذ سقوط الاتحاد السوفييتي. ماذا بعد. موقع "نوفي ريجيون". بتاريخ ١١ حزيران/يونيو ٢٠١١. <http://www.nr2.ru/moskow/335092.html>

^{١٥} Kavkaz Centre, "Arab revolutions to revitalize Islamic movements of Tatarstan and Bashkortostan". ٣٠ March, ٢٠١١.

<http://www.kavkaz.tv/eng/content/2011/03/30/13989.shtml>

^{١٦} للوقوف على التباين بين النهج الشيشاني والنهج التترستاني انظر: عاطف معتمد، "الإسلام الروسي بين الصدام والتفاهم". الجزيرة نت، بتاريخ ٥ أكتوبر ٢٠٠٤.

<http://www.aljazeera.net/NR/exeres/36944F13-E413-4633-8307-2822VED81ED322.htm>

^{١٧} Bilan. V, "What Awaits Russia if a National Revolution Wins Out?", *New Eastern Outlook*, Feb. ٠٢. ٢٠١١.

الشعبي على تخومها المباشرة في آسيا الوسطى والقوقاز وشرق أوروبا. وتأكّد لروسيا أنّ وراء هذه الثورات دعماً وتمويلاً أميركياً وغريباً مباشراً. ومن حسن طالع روسيا أيضاً أنّ جميع هذه الثورات قد منيت بالفشل ولم تتمكّن أيّ واحدة منها من تحقيق الحلم الشعبي بالرفاهية والاستقلال عن التبعية الخارجية. على هذا النحو، تنظر روسيا إلى ربيع العرب لا على أنّه جاء متأخراً فحسب، بل وبيقين بأنّ نصيبه من النجاح لن يكون أفضل ممّا حدث في التجارب السابقة على الأراضي الروسية.

وفي ظلّ الاحتكار الإعلاميّ الذي يتبعه الكرملين منذ وصول فلاديمير بوتين إلى حكم روسيا عام ٢٠٠٠، تمّ تفسير الثورات العربية بطريقة سلبية. فالإعلام الروسي، وفي مقدّمته القناة الخامسة وقناة إزفيستيا الإخبارية، لم يستخدم مصطلح "ثورة" في وصف ما يجري في العالم العربيّ بل تعمد استخدام مصطلحات على شاكلة "تمردات" و"تظاهرات" و"صدّامات"، مصوّراً الأمر على أنه نزاعات أهلية أكثر منه انتفاضة شعبية ثورية. وتناقلت وسائل الإعلام الروسية تصريحات الرئيس الروسيّ دميتري مدفيدف التي وصف فيها الأحداث في العالم العربيّ بقوله: "هذه الدول صعبة المراس، ومن المرجّح جدّاً أن يحمل لها مستقبل تلك الأحداث أوقاتاً عصيبة، بما في ذلك أن يقفز إلى السلطة المتطرفون، وهو ما يعني أنّ هذه الدول ستعيش في حروب لعقود مقبلة وينتشر فيها الإرهاب وقد تتجرّأ إلى دويلات قرمية"^(١٨). وقد تكرّر هذا الزعم على لسان مسؤولين ممّن رأوا أنّ ليبيا وسوريا ستصبحان معاقل للإرهاب"، وذلك بعد أن دخل الثوار طرابلس واشتدّت المواجهة في سوريا.

ويتمّ دعم هذه الرؤية بتحليلات سياسية ترى ما يجري في العالم العربي حراكاً "فوقياً" و"تخبوياً"، وأنّ ربيع العرب ليس سوى "انقلاب" على الحكم. وفي ذلك، يذهب الخبير الرّوسي في العلاقات الدولية ليونيد سوكيانين إلى أنّ "استخدام مصطلح 'ثورة' للحديث عمّا يجري في العالم العربيّ فيه قدر من التّجاوز ويعطي ما يجري في تلك المنطقة صفة إيجابية، بينما قد لا يكون الأمر برمته أكثر من صراع بين النّخب السياسية وبين مؤيدين ومعارضين للرئيس في كلّ بلد عربيّ على حدة"^(١٩).

وفي نظر رجال الدولة في روسيا، فإنّه إذا لم تكن الثورات العربية مؤامرة أميركية فإنّها على الأقلّ قد انطلقت على صهوة الجواد الأميركيّ الجديد المتملّ في مواقع الإنترنت التي ساهمت في نجاح تلك الثورات، خاصّة مواقع فيس بوك وتويتر وغوغل، وكلّها منتجات تقنية أميركية ساعدتها الهواتف النّقالة الرّخيصة التي أنتجتها الصين وتنتشر بكثافة في الدّول العربية^(٢٠). وتذهب مثل هذه التّحليلات إلى أنّ الثورة نجحت بفعل ناشطين وهميين دخلوا على الشّبكة العنكبوتية وصاغوا الصّفحات وضاعفوا من أعداد

^{١٨} Etling, B, "The Russian Media Ecosystem and the Arab Spring, *Mediacloud.org*, May ٢, ٢٠١١.

^{١٩} إذاعة "دوتشيه فيله" في حوار مع ليونيد سوكيانين بعنوان "روسيا والثورات العربية.. شعار الحياد ولغة المصالح" بتاريخ ١٤ مايو، ٢٠١١.

<http://www.dw-world.de/dw/article/٠,١٥٠٨٥٩٤٠,٠٠.html>

^{٢٠} غريغ ليندسكي، "ثورات عربية بالهواتف الصينية المحمولة"، موقع ويب بلانيتا، بتاريخ ٢٠ حزيران/يونيو ٢٠١١

http://www.webplanet.ru/knowhow/gadgets/cm_silence/٢٠١١/٠٦/٢٠/chinese_phones.html

المشاركين بطريقة غير واقعية. ومن ثم يتساءلون هل من المصادفة أن يكون وائل غنيم (النشط الذي ساهم في انتشار الثورة المصرية على الإنترنت) مدير غوغل في الشرق الأوسط؟ الطريف أيضا، أن ما نشهده اليوم في العالم العربي من وجود تنظيمات موالية للنظام مستعدة لإشغال البلاد واستهداف الثوريين جسدياً له أيضا نظير في روسيا. فقد سارع الكرملين منذ عام ٢٠٠٥ كخطوة احترازية للرد على أي ثورات محتملة (بعد الثورة البرتغالية في أوكرانيا) إلى إنشاء تلك المنظمات تحت رعاية مباشرة من الرئيس الروسي (فلاديمير بوتين آنذاك). وتتألف مثل هذه التنظيمات من شباب المدارس والجامعات الروس ممن تم تدريبهم تحت شعارات محاربة الاستعمار الغربي والدفاع عن روسيا و"روسيا فقط للروس" وغير ذلك من مفاهيم قومية مشوهة ومفرطة في الشوفينية. وتُعرف الجماعة الأكثر تأثيراً في روسيا باسم "ناشي" (وتعني "رجالنا"، أو "أتباعنا"). ويحذر البعض منهكماً من أن "ناشي" قد لا تكون سوى النسخة الروسية من "نازي". ومن الطريف أن هذه الحركة الشبيهة بالشبيبة النازية ترفع شعار مناهضة الفاشية، ومن هم الفاشيون في روسيا؟ يجب أعضاء "ناشي": هم "كلّ الخونة والعلماء المعارضين لفلاديمير بوتين"^(٢١). ويذكرنا هذا النهج بما كان يفعله الحزب الحاكم في مصر، حين رمى كلّ المعارضين لصفقة تصدير الغاز لإسرائيل بتهم "العمالة" و"خيانة الوطن".

وخلال العامين الماضيين -واستعداداً وتخوفاً من ثورات داخلية-، أصدر الرئيس الروسي الحالي دميتري ميدفيدف قرارات تتفق تماماً مع ما اتخذ في كلّ من مصر وسوريا وتونس في فترات سابقة حين تمّ اعتبار المنظمات غير الحكومية التي تتلقّى دعماً مالياً غريباً مؤسساتٍ "تجسس على الوطن"، واعتبار أيّ تجمهر أو ثورة أو تمرد "جريمة ضدّ الدولة". ومن ثمّ، فإنه ما إن اشتدّ عود الحراك الثوري العربي حتى خرج الرئيس الروسي ميدفيدف في اجتماع لكبار ضباط الأمن في مدينة فلاديفقاز المتاخمة للقوقاز المضطرب بالقول "دعونا نواجه الحقيقة، إنهم (يقصد القوى الغربية) يخطّون نفس السيناريو لروسيا، وسيعملون الآن بكلّ طاقتهم لتنفيذه"^(٢٢).

وكما في العالم العربي، تلعب الحكومة الروسية على تقسيم المعارضة وتفتيتها بطرق شتى أهمّها اتهامها بالعمالة للغرب، وباختطاف أفكارها وإعادة إنتاجها، واستقطاب عناصر المعارضة وإغرائها بجزء من كعكة السلطة، أو بنشويه صورة بعض الشخصيات المنافسة على زعامة الدولة. والنتيجة النهائية أن عدد المعارضين الروس محدودٌ للغاية، حتّى أنّ مسرح المعارضة اليوم لا يقف عليه سوى نفر يمكن عدّهم على أصابع اليد الواحدة.

^{٢١} Belov, O, "Nashi Versus Nazi: Anti-Fascist activity as a means of mass youth mobilization in contemporary Russia", *Anthropology of East Europe Review*, ٢٠٠٨, Volume ٢٦, No. ٢, p. ٤٨-٥٥

^{٢٢} Abdullaev, N, "Kremlin Sees Peril in Arab Unrest", *Moscow Times*, Feb. ٢٤, ٢٠١١.

٣- الحسابات الجيوسياسية

تتعلق علاقة روسيا بالعالم العربيّ خلال العقدين الماضيين من ثلاثة أبعاد جيوسياسية نجملها على النحو التالي:

أ. أزمة بناء نظام عالمي

تتعلق السياسة الخارجية الروسية من أنّ العالم يعيش منذ انهيار الاتحاد السوفييتي فترة انتقالية، ولا تُسلم روسيا بأنّ ثمة نظاماً أحادياً يحكم العالم خلال هذه الفترة. ورغم إدراك موسكو تخلفها عن التقدم التقنيّ مقارنة بالدول الكبرى، إلا أنها تؤمن بإمكانية تجاوز ذلك أخذاً في الاعتبار القدرات الذهنية الرفيعة التي ما تزال متوقّرة في شعبها إلى الآن^(٢٣). وخلال ذلك، تتحفّظ روسيا على المسعى الأميركي لـ "تشر الديمقراطية"، مؤكّدة أنّ "الأميركيين في سعيهم لتصدير الديمقراطية، مع جهلهم بتاريخ ووقائع مجتمعات العالم المستهدفة، يشبّهون التروتسكيين الذين طالبوا بتصدير الثورة البروليتارية إلى كافة أرجاء العالم، بغضّ النظر أوجد فيها وضع ثوري أم لا"^(٢٤).

ولعلّ أكثر معضلات أزمة النظام العالمي في حقبة ما بعد الحرب الباردة أنّ حالة الانكماش الجيوسراتيجي لروسيا خلال العقدين الأخيرين جعلتها محاصرة من جميع الجهات بأزمات عالمية، سواء بسبب الحرب في أفغانستان، أو الصّراع على الحزام الحدودي بين باكستان وأفغانستان، أو الطلّعات الجوية لحلف الناتو التي تنطلق من دول البلطيق وبعض القواعد في آسيا الوسطى وتركيا وشرق أوروبا، فضلاً عن استهداف صربيا ومساندة انفصال كوسوفو، والسيطرة العسكرية الأوروبية على حوض البحر المتوسط والخليج العربي.

وحيث وقفت روسيا في مطلع تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١١ مستخدمةً الفيتو في وجه المشروع الأميركي-الأوروبي لإدانة النظام السوري في مجلس الأمن، كان موقفها واضحاً بأنّها تعارض في المقام الأوّل تحويل مجلس الأمن إلى حلبة لممارسة الهيمنة الدولية (الأخرى أنّها تعاكس وتشاكس فرض هذه الهيمنة). وتحاول روسيا أن تحقّق ذلك من خلال تنسيق تحالف دولي جديد تمثّله مجموعة دول البريكس (BRICS) (الحروف الأولى من أسماء دول البرازيل وروسيا والهند والصين وجنوب أفريقيا)، خاصّة أنّ الدول الأخيرة هي التي وقفت إلى جانب النظام السوري في مجلس الأمن في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١١، حين استخدمت روسيا والصين الفيتو وساندتها كلّ من الهند والبرازيل وجنوب أفريقيا بالامتناع عن التصويت. في هذه المرحلة التي لم يتحدّد فيها مستقبل روسيا ومصير النظام العالمي، تضع موسكو العالم العربيّ في مكانه الحقيقيّ ضمن دوائر الأمن الإستراتيجيّ. فالعالم العربيّ، بكلّ ثورانه وركوده، لا يمكنه أن

^{٢٣} يفغيني بريماكوف، العالم بدون روسيا.. قصر النظر السياسي وعواقبه، ترجمة عبد الله حسن، (دمشق: دار الفكر ٢٠١٠) ص ١٧-٣٥.

^{٢٤} المصدر نفسه، ص ٤٩.

يتخطى الدائرة الرابعة من هذه الدوائر. فالقوقاز المضطرب ومناطق الأقليات الساعية إلى الانفصال داخل البيت الروسي هي الدائرة الأولى، بينما تمثل الدول المستقلة عن الاتحاد السوفييتي الدائرة الثانية، أما الصين والهند وإيران وتركيا واليونان والبلقان ووسط أوروبا فتصنع قوسا كبيرا يمثل دائرة الأمن القومي الثالثة.

وأمام صعوبات الانطلاق جنوباً نحو العالم العربي والشرق الأوسط، أعادت روسيا خلال العام الماضي توجيه سياستها الخارجية نحو محور آسيا - المحيط الهادئ. ويقف وراء ذلك عدد من الأسباب، أهمها الحاجة إلى تنمية الأقاليم المتأخرة في الشطر الآسيوي من روسيا إلى الشرق من الأورال وعبر سيبيريا وصولاً إلى الحدود الصينية وجزر كوريل وحدود ألاسكا. وإلى ما سبق تضاف محاولة روسيا الاستفادة من الصعود الاقتصادي الصيني، خاصة أن الصين انتقلت في عام ٢٠١٠ لتحل محل ألمانيا كأكبر شريك تجاري مع الاتحاد الروسي، فضلاً عن فرصة اللحاق التقني بكوريا الجنوبية واليابان.

وفي هذا المخطط الإستراتيجي الجديد، يقر الخبراء الروس بأنه ليس لروسيا في العالم العربي سوى قليل من المصالح الاقتصادية، وهي تنتهج في هذا الإقليم ردود أفعال على السلوك العسكري الأميركي دون أن تبادر باتخاذ خطوات فعلية^(٢٥).

ومن جهة أخرى تتمتع روسيا في هذه السنوات بتحسّن في العلاقات مع الولايات المتحدة منذ وصول الرئيس أوباما إلى منصبه. ويرجع بعض المراقبين أن جزءاً من هذا التحسّن يعود إلى أن أوباما قد استمع لنصائح مستشاريه بأنه "إذا أردت أن تكسب الجانب الروسي في السياسة الخارجية وتوقف هجومه عليك فتوقّف عن توجيه الاتهام له بانتهاك حقوق الإنسان (في الشيشان مثلاً) وكفّ عن إسماعه دروساً في الديمقراطية"^(٢٦).

ولا يكتمل هذا البعد العالمي في موقف روسيا من الثورات العربية دون الأخذ في الاعتبار علاقة روسيا بإسرائيل التي تضمّ نحو مليون إسرائيلي من أصول روسية وسوفييتية، فضلاً عن وجود ما بين خمسة إلى ستة ملايين أسرة روسية لها أقارب وأصدقاء في إسرائيل. ويؤكد بعض المحللين الروس أن موسكو خلاف ما كان يفعله الزعماء السوفييت سابقاً، لا ترغب في عزل إسرائيل (إذا ما نجح ربيع العرب)، خاصة في ظلّ التعاون الوثيق بين موسكو وتل أبيب في قضايا الإرهاب، واشتراكهما في الوعي بخطورة الأصولية الإسلامية التي تهدد الجنوب الروسي ومجالها الحيوي في آسيا الوسطى^(٢٧).

^{٢٥} Dmitri Trenin & al. (٢٠١١), Op. Cit.

^{٢٦} ليليا شيفتسوفاف، "بحثاً عن النور"، نوفايا غازيتا، بتاريخ ٢٢ أبريل ٢٠١١.

^{٢٧} Dzieciolowski Z. "Russia and the Middle East: Post-Soviet flux". ١٣ Aug. ٢٠٠٦.
http://www.opendemocracy.net/conflict-middle_east_politics/russia_policy_٣٨١٧.jsp

ب. الكوابح العسكرية

تحتلّ روسيا المرتبة الثانية بعد الولايات المتّحدة في تصدير الأسلحة للعالم^(٢٨). وإذا كانت الولايات المتحدة توجّه صادراتها مناصفة تقريباً بين الدول المتقدّمة والنامية، فإنّ زبائن روسيا هم من الدول النامية وبنسبة تبلغ نحو ٩٠%^(٢٩). من المفارقات في تجارة روسيا للسلاح في العالم العربي أنّ نجاح تسويق السلاح يتوقّف في جزء كبير منه على حملات نشر الفزع وتخويف الأطراف المتنازعة في العالم العربي وتغذية الأطراف المتناحرة عبر وكالات المخابرات. ونجد روسيا (التي لا تتقن هذه الحملات كافيةً) تستفيد في تجارتها للسلاح من الجهود الكبيرة التي تقوم بها الولايات المتّحدة في هذا الصّد.

ويحتلّ العالم العربي المرتبة الثانية في محطّات استقبال السلاح الروسي (بنسبة ١٥%) بعد الدول النامية الآسيوية التي تتلقّى نحو ٦٢% من إجماليّ صادرات روسيا من السلاح. كما أنّ روسيا هي أكبر مورد للسلاح في أفريقيا، وتحتلّ المرتبة الثانية في كلّ من آسيا وأميركا اللاتينية بعد الولايات المتّحدة. وبعد انهيار الشيوعية وتزايد الاستنثار الغربي بالملفّات السياسية العربية، تراجعت مكانة روسيا في توريد السلاح للعالم العربي إلى المرتبة الرابعة بعد كلّ من الولايات المتحدة والمملكة المتّحدة وفرنسا^(٣٠).

وبدیهي أنّ مراجعة الحروب التي اندلعت في الشرق الأوسط منذ انتهاء الحرب الباردة، تثبت أنّ الكلمة الأخيرة في حسم المعارك نكتبها الأساطيل البحريّة والقواعد العسكرية فيما وراء البحار. وهنا، تجد روسيا نفسها مكبّلة بضعف قدراتها في هذه الأنواع من أسلحة المناورة العالميّة. ولا وجه للمقارنة بين القدرات البحريّة الروسيّة ونظيرتها الغربيّة أو الأميركيّة، خاصّة الأسطول السادس الأميركيّ الرابض في مياه البحر المتوسّط منذ أربعينيّات القرن العشرين والذي ترعرع هنا تحت دعاوى مواجهة التهديد الشيوعي لتركيا وإيران وجنوب شرق أوروبا.

ومن المعلوم تاريخياً أنّ الأسطول الروسي يتألّف من أربع أذرع: الأسطول الشماليّ وأسطول المحيط الهادئ وأسطول بحر البلطيق وأسطول البحر الأسود. والأساطيل الثلاثة الأولى بعيدة للغاية عن مسرح التنافس في المنطقة، فيما يعيش الأسطول الرابع في البحر الأسود أزمة انحباسه داخل مياه ذلك البحر شبه المغلق ولا يغامر بالخروج إلى ساحة الأسطول السادس الأميركيّ الذي يعرّد منفرداً في منطقة شاسعة تمتدّ من السّويس شرقاً إلى خليج غينيا في غرب أفريقيا.

هل كانت روسيا غافلة عن أهميّة وجود أسطول في المياه العربيّة في البحر المتوسّط؟ يجيبنا المؤرّخ والمستشرق الروسي أليكسي فاسيليف بالقول: "كان الغرض الإستراتيجيّ الكونيّ للأسطول السوفييتي واضحاً للقيادة العسكريّة السوفييتيّة منذ ثلاثينيّات القرن العشرين، إلّا أنّ الوضع الجغرافيّ لدولة قاريّة،

^{٢٨} Grimmett, R, "CRS Report for Congress; Conventional Arms Transfers to Developing Nations, ٢٠٠٠-٢٠٠٧", October ٢٣, ٢٠٠٨. <http://www.fas.org/sgp/crs/weapons/RL٣٤٧٢٣.pdf>

^{٢٩} Nup, S, "The Arms Trade is Big Business", *Global Issues*, November ٠٩, ٢٠٠٩. <http://www.globalissues.org/article/٧٤/the-arms-trade-is-big-business>

^{٣٠} Nup S, *ibid*.

وضعت القاعدة الصناعية، والإمكانات العسكرية الفنية عشية الحرب العالمية الثانية وضعت جميعها قيوداً على حجم الأسطول الحربي السوفييتي وحصرت استخدامه على مساعدة العمليات البرية^(٣١). ولم تطمح موسكو في ذروة مجدها السوفييتي في العالم العربي إلى أكثر من الحصول على تسهيلات عسكرية ومستودعات للوقود لسفنها العسكرية في مصر في موانئ بورسعيد والإسكندرية والبرلس ومطروح والسلم. أما في سوريا فكانت اللاذقية الميناء المفضل للسوفييت، وكانت عدن الميناء الأكثر إستراتيجية الذي تمكّن السوفييت من استخدامه في اليمن إلى جانب ميناء "بربرة" في الصومال. وقد استفاد العالم العربي من هذا الحضور البحري السوفييتي، حتى أنّ إحدى الوسائل الحاسمة في حرب أكتوبر ١٩٧٣ والمتمثلة في الجسور العائمة التي استخدمها المصريون في عبور القناة جاءت بدعم بحري سوفييتي^(٣٢). وإذا ما ربطنا التاريخ بالحاضر، يمكننا تقدير حجم القلق الروسي بما تكبدته موسكو من خسائر بسبب الثورات العربية، والبالغة نحو ١٠ ملايين دولار في مجال التسليح مع كل من مصر والجزائر وليبيا^(٣٣). فقد عقدت موسكو صفقات مع ليبيا وحدها بنحو ٤ ملايين دولار لشراء أسلحة جديدة لتحديث منظومة التسليح التي بُنيت في العهد السوفييتي^(٣٤). وقبل إسقاط القذافي، كانت شركة غازبروم قد استحوزت على نسبة ٣٣% من حصة شركة الغاز الإيطالية "إني ENI" في حقول النفط والغاز في الأراضي الليبية^(٣٥). ومع اشتعال الأحداث في ليبيا سحبت روسيا موظفيها العاملين في مجال النفط ومجال شبكة البنية الأساسية خاصة في إقامة أول شبكة سكك حديدية في ليبيا^(٣٦). وبعدها نجح الثوار في دخول طرابلس، أكد رئيس المجلس الانتقالي الليبي مصطفى عبد الجليل المخاوف الروسية حين أعرب في الثامن من أيلول/سبتمبر ٢٠١١ أنه وإن كان يشكر روسيا لأنها لم تستخدم حقّ الفيتو في فرض منطقة حظر طيران فوق ليبيا، إلا أنّ ذلك لا يعني مراجعة العلاقات معها في المستقبل خاصة في مجال التسليح، معتبراً أنّ "احترام المجلس للعقود السابقة مع جميع الدول لا يعني أنّها لن تخضع للمراجعة لأنها عقود يشوبها نوع من الفساد والأسعار المغالى فيها". وكان ردّ بعض الخبراء الروس على هذا التصريح قد أشار إلى أنّ المجلس الانتقالي في ليبيا من البديهي أنه سيّجّه إلى شراء الأسلحة من الدول التي ساعدته على الإطاحة بالقذافي وفي مقدمتها فرنسا والمملكة المتحدة ثمّ إيطاليا والولايات المتحدة.

^{٣١} أليكسي فاسيليف، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٢، ١٣٠.

^{٣٢} المصدر نفسه، ص ١٥٠.

^{٣٣} Jacob W. Kipp, "Moscow Responds to the Arab Revolutions: Focus on Libya", *Eurasia Daily Monitor*, Volume: ٨ Issue: ٨٠, ٢٥ April ٢٠١١.

http://www.jamestown.org/programs/edm/single/?tx_ttnews%5Btt_news%5D=٣٧٨٣٢&cHash=dce٠٣٧٠٩fc٧٧٥٥٢٠edc٨f٥b٩d٩eb٧٨٣٣

^{٣٤} نقلا عن نوافيا غازيتا بتاريخ ١ مارس ٢٠١١.

^{٣٥} "Arab Spring' Bad news for Russian Arms Industry", *Intelligence Briefing*, ١٤ June, ٢٠١١.

http://www.worldtribune.com/worldtribune/wtarc/٢٠١١/eu_russia٠٧٢٩_٠٦_١٤.asp

^{٣٦} نقلا عن كومرسانت، بتاريخ ٧ أبريل ٢٠١١.

ورغم خسائرها الآتية، فإنّ روسيا ستفيد على المدى القصير من الثورات العربيّة التي أدت إلى ارتفاع أسعار النفط الرّوسى بنحو ٣٠%. وعلى المدى البعيد، إذا وصلت الثورة إلى بلدٍ مثل الجزائر وتعطلّ إمداد الغاز الجزائريّ إلى أوروبا، فسيصبّ ذلك أيضاً في صالح روسيا التي ستقترب من حافة احتكار توريد الغاز لأوروبا. ومن شأن ذلك أن يحقّق مضاعفة للميزانيّة السنويّة الروسيّة. لكن على الجانب الآخر، فإنّ تدفّق المزيد من الأموال السائلة على الاقتصاد الرّوسى يجعله عرضة للتضخّم. كما أنّ اتّساع نطاق الثورات العربيّة قد يؤدّي إلى أزمة اقتصادية عالمية^(٣٧).

ت. العامل الدينيّ

يبلغ عدد سكّان روسيا نحو ١٤٥ مليون نسمة، وتعاني روسيا من أزمة ديموغرافيّة شديدة تتمثّل في تناقص النموّ السكانيّ خلال العقدين الماضيين نتيجة عدة اعتبارات في مقدّماتها تدهور الأوضاع الصحيّة وتزايد هجرة العقول. ويبلغ عدد المسلمين في روسيا ما بين ٢٣ إلى ٢٥ مليون نسمة، وهو ما يمثّل ما بين ١٦ و ١٧% من إجمالي سكّان البلاد. وليس بمستغرب أن حصلت روسيا - متذرّعة بهذا الحجم والعلاقات التاريخية الطويلة مع العالم الإسلاميّ - على مقعد دائم بصفة مراقب في منظّمة المؤتمر الإسلاميّ في الاجتماع الثّاني والثلاثين لوزراء خارجية دول المنظّمة الذي عُقد في صنعاء في ٣٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٥^(٣٨).

ومنذ انهيار الاتّحاد السوفييتي في كانون الأوّل/ديسمبر عام ١٩٩١، تزايد تأثير العامل الديني في علاقة روسيا بالعالم العربيّ. فخلال حرب الشيشان الأولى ١٩٩٢-١٩٩٤ والثانية ١٩٩٩-٢٠٠٣، كانت هناك اتّهامات روسيّة مباشرة لدول في شبه الجزيرة العربيّة بتمويل حركة التمرد في الشيشان سواء بالمال أو الرجال. وقد تراجع عدد من الدول العربيّة بالفعل عن تسهيل وصول هذا الدّعم إلى الشيشان بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ وما وُجّه إلى هذه الدول من تهمة بتمويل الإرهاب الدوليّ. وكان الأهم هو توقّف معظم وسائل الإعلام العربيّة، والخليجيّة خصوصاً، عن نشر أيّ تغطيات تسيء إلى صورة روسيا أو تتّهمها بارتكاب "إبادة جماعيّة" أو "تطهير عرقيّ" في القوقاز.

وبعد الغزو الأنجلو-أميركي للعراق في ٢٠٠٣، وقع تعاطف إسلامي كبير في الداخل الرّوسيّ مع الشعب العراقيّ متنسقا مع الهجوم الرّسمي للكرملين على القوى الغربيّة. وكادت الأمور تخرج عن حدودها في الشّحن الجماهيريّ الإسلاميّ، لولا أنّ موسكو أفلحت في الإمساك بقواعد اللعبة، وجردت الإمام طلعت تاج الدين من منصبه كرئيس للإدارة الدينيّة في سيبيريا والقطاع الأوروبي من روسيا، بسبب إعلانه الجهاد وفتح باب التطوّع أمام مسلمي روسيا. وقد ترافق ذلك مع ما تناقلته وسائل الإعلام الغربيّة

^{٣٧} Ivanov.E, "Consequences of the 'Arab Uprising'", ١٥ March. ٢٠١١.

<http://www.russiaotherpointsofview.com/٢٠١١/٠٣/consequences-of-the-arab-uprising-.html>

^{٣٨} Kreutz. A, Op. Cit., p. ٨.

عن إعلان القوّات البريطانيّة والأميريكيّة إلقاء القبض على متطوّعين شيشانيّين وداغستانيّين في البصرة وبغداد.

وفي تشرين الأوّل/أكتوبر ٢٠٠٥، حين وقعت أزمة الرّسوم الدانماركية المسيئة للرّسول (صلّى الله عليه وسلّم)، انتقدت القيادة الروسيّة الدول الغربيّة التي نشرت الرّسوم وطالبتها بالاعتذار. وفرض الكرملين حظراً إعلامياً على إعادة نشرها في الصّحف الروسيّة، احتراماً لمشاعر مواطنيها المسلمين. وحين تجرّأت صحيفة غورودسكيا إزيفستيا في مدينة فولغوغراد على إعادة نشر الرّسوم، سارعت السّلطات الروسيّة بمصادرة الصّحيفة وإغلاقها^(٣٩).

لكن هذا الحرص الروسي على ضبط العلاقة مع العالمين العربيّ والإسلاميّ لم يكن موفقاً في كافّة الأحوال. ففي كانون الأوّل/ديسمبر ٢٠٠٨ وكانون الثّاني/يناير ٢٠٠٩، حين شنت إسرائيل حرب إبادة على سكّان غزّة المحاصرين، تطلّع كثيرون في العالم العربيّ إلى روسيا منتظرين منها فعلاً إيجابياً يخفّف تلك الكارثة، لكن روسيا لم تغمض أعينها فقط، بل صرّحت رسمياً بأنّها "تشعر بالقلق تجاه الصّور المفزعة التي تشاهدها في غزّة، لكنها تتفهم في نفس الوقت حقّ إسرائيل في الدّفاع عن نفسها"^(٤٠).

واستمرّت روسيا تمارس الانتقائيّة والتناقض في المسألة الدينية، فأدرجت في أغسطس ٢٠٠٦ حركة الإخوان المسلمين على قائمة الإرهاب المهدّد للأمن القوميّ الروسي، في الوقت الذي استقبلت فيه بترحاب زعماء حركة حماس في موسكو. ثمّ بادرت روسيا -بعد الدّور الذي لعبه الإخوان المسلمون في الثورة المصريّة (كانون الثّاني/يناير وشباط/فبراير ٢٠١١)- بالترحيب بفتح حوار مباشر معهم عبر حزبهم الجديد "العدالة والحرية"^(٤١). ولعلّ روسيا لا ترى في التّيّارات الدينيّة العربيّة لوناً واحداً، فهي وإن كانت لا تشعر بقلقٍ شديد من صعود الإخوان في مصر، فإنّ صعودهم في سوريا يمثّل تهديداً مباشراً لمصالحها وخططها في المشرق العربيّ.

خاتمة واستنتاجات

خلال الفترة من يناير وحتى مطلع أكتوبر ٢٠١١، حافظت روسيا على موقفٍ بدأ سلبياً ومنتحفظاً تجاه الحراك الثوريّ العربيّ، ثمّ تحوّل على نحو براغماتيّ -مع تحقيق القوى الثوريّة نجاحاً- إلى طريق أقلّ تشدداً في الوقوف مع الأنظمة الحاكمة، وإن تباین هذا الموقف بعدم الاكتراث (اليمن) والمتابعة المترقبة

^{٣٩} Ibid, p. ٦.

^{٤٠} عاطف معتمد، "العلاقات العربية الروسية في ظل التحولات الدولية"، ورقة عمل في: ملتقى العلاقات العربية الروسية، مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة، فبراير ٢٠٠٩.

^{٤١} نقلًا عن وكالة الأنباء الروسية "ريا نوفستي" بتاريخ ٢ أغسطس ٢٠١١.

(تونس) والمراقبة بقلق (مصر) والمراوغة والشجب (ليبيا)، والرّفص القاطع لأيّ تدخّل دولي مع المطالبة بإصلاحات داخلية عاجلة (سوريا).

وقد أظهرت المراجعة التاريخية أنّ العلاقات الروسية العربية التي تمتدّ أكثر من ألف عام، اتّسمت بفترات من المدّ والجزر كان أكثرها وضوحاً في خمسينيّات وستينيّات القرن العشرين، حين تقدّمت موسكو للمساهمة في تطوير البنى الأساسية في العالم العربي على كافة الأصعدة، فضلاً عن دورها الثقافي البارز خلال تلك الفترة. ويعتبر عقد سبعينيّات القرن العشرين بداية خطّ متّصل من تراجع الدور الروسي في العالم العربيّ، ذلك الدور الذي اختفى أو كاد منذ عام ١٩٩١. ونقوم السياسة الخارجية الروسية تجاه العالم العربيّ في السّنوات الأخيرة على مبدأ ردّ الفعل وتجنّب المبادرات الراديكالية.

وتكاد مراجعة الموقف الروسي خلال القرن العشرين تجاه الحراك الوحدوي والقوميّ والثوريّ العربيّ تؤشّر على نظرة تشكيكية تحتفظ بها روسيا تجاه الشّعوب العربية، وترى من خلالها العرب غير فاعلين ويفقدون لوعي الاستقلال عن القوى الاستعمارية، وهم يتحرّكون وفق مخطّطات أجنبية: بريطانية، وفرنسية، وأميريكية. ولم تتغيّر هذه النظرة حتّى يومنا هذا، فخرج عدد من الخبراء الروس يملأ الإعلام بأنّ ربيع الثورات العربية في عام ٢٠١١ ليس سوى مؤامرة يهودية أو أميركية للسيطرة على الشرق الأوسط من خلال إيقاعه في الفوضى والتخلّص من حكّامه الذين استهلكوا دورهم، وحان وقت طردهم من ساحة اللّعبة السياسية^(٤٢).

وقد اتّضح في هذه الورقة أنّ موقف روسيا من الحراك الثوريّ العربيّ محكومٌ بالكوابح والدوافع التالية:

- ١- طبيعة البناء السلطوي في الداخل الروسيّ الذي يسعى إلى فرض قبضة مركزية على أقاليم متطرّفة تسعى للانفصال أو التمرد. ويناسب هذا النظام طبيعة شمالية واستثنائية حزب أحادي بمقاييد البلاد. ومن ثمّ، فإنّ قبول روسيا بالديمقراطية يضعها عرضة للانفصال والتفكك واحتمال نشوب صراعات قومية وعرقية ودينية ومناطقية، بما يهدّد بانفراط حبات عقد البلاد على النمط السوفييتي.
- ٢- خشية روسيا من انتقال عدوى الثورة إلى أراضيها، خاصّة إلى الجمهوريات الإسلامية في تترستان وبشكيريا فضلاً عن القوقاز، بسبب تشابه الدوافع في الداخل الروسيّ مع واقع التجربة العربية. وتعمل موسكو على اتّباع أساليب مختلفة للحيلولة دون انتشار تلك العدوى إلى أرجاء البيت الروسيّ. وفي مقدّمة تلك الوسائل تشويه الربيع العربيّ إعلامياً واعتباره عملاً انقلابياً وصراعاً بين مؤيدين ومعارضين للرؤساء العرب.

- ٣- وترى روسيا أنّ "السياق" الذي اندلعت فيه الثورات العربية يعبر بوضوح عن أزمة النّظام العالمي والمخطّطات الأميركية الأحادية لبرامج نشر الديمقراطية مع جهل بمعطيات هذه الشّعوب الاجتماعية

^{٤٢} راجع المقابلة التي أجرتها قناة روسيا اليوم بتاريخ ١٩ مارس ٢٠١١ مع الدبلوماسي الروسي فاتشيلاف ماتيزوف الذي أرجع ما يجري من حراك ثوري في العالم العربي إلى تدبير منظمات أميركية قامت بتدريب بعض الشباب العربي على أراضيها ثم أرسلتهم لإشعال الثورة في بلادهم لإصابة العالم العربي بحالة من الشلل.

والاقتصادية. في المقابل، تتحرّك روسيا تجاه الثورات العربية بحذرٍ أخذًا في الاعتبار رغبتها في تحقيق التوازن مع كلّ من الأنظمة العربية الحاكمة، وإسرائيل، والولايات المتّحدة.

٤- لا ترغب روسيا في أن ينتهي ربيع العرب بظهور قوى إسلامية أصولية تخلق بيئة اجتماعية واقتصادية تفرخ "الإرهابيين" إلى تخومها في القوقاز وآسيا الوسطى. كما أنّ روسيا في تعاطيها مع الثورات العربية تأخذ بعين الاعتبار الوزن الديموغرافي والاقتصادي والثقافي لمسلمي روسيا الذين يمثلون نحو ١٧% من إجماليّ السكّان.

٥- لا تمتلك روسيا القدرات العسكرية البحرية التي تمكّنها من إدارة متوازنة للصراع في المياه الإقليمية للعالم العربيّ خاصّة في ظلّ استحواد الأساطيل الأميركية على ساحات القتال في كلّ من شرقيّ البحر المتوسط والخليج العربيّ وبحر العرب.

وفي النهاية، تبدو البراغماتية السياسية هي المعلم الأساس لسياسة روسيا الخارجية منذ انهيار الاتحاد السوفيتي وتخليها عن أيّ رسائل أيديولوجية، وفي مقدّمتها تلك الحجج التي استبدلت البراغماتية النّزقة بالماركسيّة، وتملّصت من الحكمة التي صاغها ماركس ذات يوم وردّها لينين وأنصاره من أنّ "الثورة قاطرة الشعوب"^(٤٣) دونها تتعطلّ الأمم وتتوقّف حركة التاريخ.

^{٤٣} Marx. K, *The Class Struggles in France, ١٨٤٨ to ١٨٥٠*, Part III: *Consequences of June ١٣, ١٨٤٩*, (Moscow: progress publishers, ١٩٦٩).
<http://www.marxists.org/archive/marx/works/١٨٥٠/class-struggles-france/ch٠٣.htm>